Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتقلَّبتُ فى الشقاء زمانًا وتنقَّلتُ فى الخطوب الجِسامِ
ومشَى الهمّ ثاقبًا فى فؤادى ومشى الحزن ناخِرًا فى عِظامى
فلهذا وقفتُ أستعطف النا سَ على البائسين فى كل عام

وعلى الرغم من هذا البؤس الذى كلّف حافظًا من الجهد ما يطاق وما لا يطاق منذ عودته من السودان، وجعله متبرمًا بعيشه، كان يحتمله جلدًا صابرًا كأقوى ما يكون الصبر والجلد، على نحو ما نرى فى ميميّة له يخاطب عينه فيها أن لا تدمع وقلبه أن لا يجزع ونفسه أن تتجشّم أهوال البؤس راضية. وما يلبث أن ينتضى لأمَة الحرب، ولكنها ليست هذه المرة درعًا ورمحًا وسيفًا وغير ذلك من أسلحة حربية، إنما هى لأمة شعرية، إذ أحال أشعاره إلى ما يشبه سيوفًا ورماحًا وسهامًا لا يزال يسدّدها إلى أعداء الوطن والعروبة. ولو أنه استسلم لبؤسه لانتابته هزيمة فى الحياة ما بعدها هزيمة، ولعاش كالطائر الجريح يشكو الحرمان والضياع، غير أن نفس حافظ كانت من القوّة والصلابة كالصخرة العظيمة، لا يستطيع البؤس أن ينال منها أى نيل، وسرعان ما استحال الجندى القديم إلى كتيبة حربية تحمى حمى الوطن والعروبة بأسلحتها الشعرية. وكانت اللغة العربية أوّل معركة خاض حافظ غمارها ضدّ قاض إنجليزى – كما مرّ بنا – تربّص بها شرًّا داعيًا إلى استخدام العامية مكانها لسانًا للعلوم والآداب، وانتفض حافظ للضاد، ونظم لا قصيدة، بل منشورًا حربيًّا نشب أظافره فى الدعوة الخبيثة المغرضة، حتى وأدها فى مهدها كأن لم تكن شيئًا مذكورًا، وأشاد بهذا النصر المبين غير شاعر فى رثائه، كقول شوقى مصوّرًا مأتم العربية عليه فى كلّ بلد من المحيط إلى الخليج سواء فى الحواضر أو البوادى:

لبنانُ يبكيه وتبكى الضادُ من حَلَبٍ إلى الفَيْحَا إلى صَنْعاءِ
هتف الرواةُ الحاضرون بشعره وحَدَا به البادون فى البَيْداءِ

وينازل – مع مصطفى كامل الزعيم الخالد – كرومر المندوب السامى البريطانى الطاغى عقب حادثة دنشواى الوحشية التى مرت بنا، غير مكترث